

الإعجاز المفهوم والاصطلاح

الإعجاز لغة: جاء في مقاييس اللغة لابن فارس قوله: " العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على الشيء يَعْجُزُ عجزاً فهو عاجز أي: ضعيف... ويقولون: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، وأصلها في الاشتقاق من مادة عجز والإعجاز أصلاً مصدر للفعل أعجز، ومنه المعجزة.

إعجاز: مصدر الفعل الماضي الرباعي تقول: أعجز، يُعجز، إعجازاً. والجذر الثلاثي للكلمة هو (عَجَزَ) تقول: عجز، يعجز، عجزاً فهو عاجز.

الإعجاز اصطلاحاً: معنى الإعجاز إذن هو: الفوت والسبق، ويطلق على الفائز، السابق لخصمه الذي جعل خصمه عاجزاً عن إدراكه. ولذلك يقول الخصم المغلوب العاجز: أعجزني فلان إعجازاً بمعنى: سبقني وفاتي، وجعلني عاجزاً عن طلبه وإدراكه. ومعني إعجاز القرآن هو: عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية، وقيام الداعي على ذلك، وهو استمرار تحدّهم، وتقدير عجزهم عن ذلك.

تعددت أقول العلماء في تعريف الإعجاز والمعجزة من تلك:

1/ الإعجاز هو إظهار عجز الثقلين، ومعني إعجاز القرآن أي: بلوغه طوراً غير مألوف ولا معتاد، وحيثما توجه الذهن إلى ناحية أو موضوع تناوله القرآن، أدرك وجهاً من وجوه الإعجاز، فهو معجز من كل موضوع تناوله، معجز في المنهج، وتشخيص القضية، ووضع الحلول العلمية.

2/ الإعجاز هو إظهار صدق النبي في دعوى الرسالة، وإظهار عجز العرب عندئذ عن معارضته في معجزته الخالدة وهي القرآن الكريم، وكذلك عجز الأجيال القادمة من بعدهم إلى ما شاء الله.

ولهذا نجد إن معنى إعجاز القرآن عجز الناس عن أن يأتوا بمثله، فكلمة إعجاز مصدر وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر لفاعله فكأن التقدير أعجز القرآن الناس أن يأتوا بمثله.

إن مصطلح الإعجاز والمعجزة لم يظهر قبل ق2هـ، ولقد نشأ في بيئة المتكلمين الذين كانوا يدافعون عن القرآن الكريم، ويردون أباطيل الزنادقة والملاحدة وأهل الزيغ. ولم يبرز مصطلح القرآن على الساحة إلا بعد أن نُقل عن واصل بن عطاء (ت131هـ) شيخ المعتزلة في البصرة قوله: إن إعجاز القرآن ليس شئ ذاتي فيه، وإنما هو بصرف الله تفكير الناس عن معارضته، وهو القول الذي تبناه فيما بعد إبراهيم النظم (ت231هـ) أحد شيوخ المعتزلة في البصرة، وعُرف هذا القول فيما بد (بالصرف).

عند ذلك بدأ العلماء يتعرضون في ثنايا كتبهم لوجه الإعجاز ويتحدثون عن إعجاز القرآن، ولعل أول من تولى الرد على القول بالصرفة هو الجاحظ (ت255هـ) تلميذ النظام، فإلى جانب تناوله موضوع إعجاز القرآن في إشارات مقتضبة في بعض كتبه الأدبية (البيان والتبيين) وكذا (الحيوان) فقد ألّف كتابا آخر سماه (نظم القرآن) ليتعرّف القارئ من خلال بيان المعاني الغزيرة في الآيات القرآنية ذات الكلمات القليلة على نظم القرآن الكريم وتفردّه بنمط معين لا يتوقّر في كلام غيره، وهذا النظم هو سرّ الإعجاز فيه.

ولم يفت الدارسين أن وجوه الإعجاز هذه إنما متعلقة بمعاني القرآن لا بلفظه ونظمه، والتحدي فيها متوجّه إلى فكر الإنسان ومعارفه والتعجيز فيها دال على طاقة ذهنية في الإنسان محدودة وقدرة على إدراك الكون وتسييره ضعيفة.

هذا الإعجاز المعنوي يقربّه الدارسون طبعا ولكنهم في إقرارهم على ثلاثة أصناف:

1/ قائل بالإعجاز المعنوي مكثف به متجاهل للإعجاز اللغوي.

2/ قائل بالإعجاز المعنوي وبالإعجاز اللغوي يجمع بينهما ويسوّيهما دون تفضيل أحدهما على الثاني.

3/ قائل بالإعجاز المعنوي لا محالة لكنه ينزّله من مقاصد المعجز منزلة ثانوية معتبرا أن موضوع الإعجاز إنما هو أسلوب القرآن ونظمه. وهذا الصنف 3 من الباحثين هو المتواتر في الدراسة القرآنية قديما وحديثا.

على سبيل المثال لا الحصر يعتبر عبد القاهر الجرجاني من أشهر المنظرين لدراسة نظم القرآن، معتبرا بإلحاح أن الإعجاز في التركيب لا في المعاني والأغراض والمقاصد، قال في الرسالة الشافية: "فإن التحدي كان إلى أن يجيئوا في أي معنى شاءوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه. يدل على ذلك قوله تعالى: "قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات - أي في النظم- وليكن المعنى مفترى لما قلتم ، فلا إلى المعنى دعيتم ولكن إلى النظم".